نشأة اللغة العربية ومصادرها

اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي التي يقال لها اللغة العربية الفصحى ، وكذلك سائر لهجات العرب هي فروع من مجموعة لغات ، عرفت عند المستشرقين باللغات السامية ، وقد اولع بعض المستشرقين بدراسة هذه اللغات ، فألفوا فيها كتبا وابحاثا وانشأوا مجلات عدة تفرغت لها ، وما زالوا يسعون فى توسيعها وتنظيمها وتبويبها ، وقد عرفت دراساتهم هذه عندهم بالساميات Semitistik وهي تتناول بالدرس كل اللغات التي يحشرها علماء الساميات فى مجموعة اللغات السامية تتناولها بغض النظر عن وجود اللغة أو عدم وجودها فى هذا العصر . فالبحث علم والعلوم تبحث عن المعرفة دون تقيد بزمان او بمكان وينفق علماء الساميات مجهودا كبيرا فى المقارنة بين اللغات السامية وفى معرفة مميزات كل لغة وما بينها وما بين اللغات الاخرى من فروق او تطابق او تشابه .

وترجع تسمية السامية الى عالم الماني اسمه شلوتسر Schlotzer فهو اول من استعمل السامية فى بحوثه فى تاريخ الروم القديم ، ويعود فضل ايجاده الى شجرة انساب الامم الواردة فى التوراة والتي ترجع انساب البشر الى ابناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث « سفر التكوين . الاصحاح العاشر»

فاطلق العالم شلوتسر لفظ السامية على جملة شعوب رجعت التوراة نسبها الى سام بن نوح وشاعت التسمية منذ ذلك الحين وخاصة باستعمال المستشرق الالماني ايسن هورن Eichhorn وادخاله اياها فى مؤلفاته وبحوثه واستعملها غيره من العلماء الالمان والانجليز والفرنسيين حتى صارت مصطلح علم عندهم ذا مدلول معين مفهوم ثم وجد هذا المصطلح سبيله الى الامم المنتشرة فى آسيا وافريقيا (1) .

والقرابة بين اللغات السامية واضحة بينة وهي اوضح وامتن واوثق من الروابط التي تربط بين فروع طائفة اللغات المسماة باللغات « الهندواوربية » او الهند جرمانية على حد تعبير بعض العلماء .

وليس الاختلاف بين اللغات السامية القديمة يزيد على الاختلاف الكائن بين اللغات الجرمانية ولقد ادرك مستشرقوا القرن السابع عشر من امثال هوتنكر Hottinger (1620 – 1667) وبخارت Bochart والبرت سولتنس Albert Schultens (1686 – 1750 م) ولودلف Ludolf وكاسل Edmcastell (1606 – 1685) بسهولة الوشائج التي تربط بروابط متينة ما بين تلك اللغات واشاروا اليها ونوهوا بصلة القربى التي تجمع شملها ، بل لقد سبقهم الى ذلك علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين هداهم ذكاؤهم وعلمهم الى اكتشاف تلك الوشائج والى التنويه بها فقد تحدث عالم يهودي إسمه ياهودا بن قريش Iehuda ben Koraish وهو ممن عاشوا فى أوائل القرن العاشر تحدث عن القرابة التي تجمع بين اللغات السامية وعن الخصائص اللغوية المشتركة بين تلك الالسن . كما ابدى هذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة عن الاسس اللغوية التي تجمع شمل تلك اللغات(2).

ولقدماء علماء السامية آراء بنيت على اعتبارات دينية ونفسية فى قدم لغات ابناء سام فتعصبوا للغتهم وحملهم تعصبهم هذا وتقديسهم للغتهم على تفضيلهم لغتهم هذه على سائر لغات أبناء آدم بل لم يقبل بعضهم ذلك ايضا فوجدوه قليلا لا يليق بجلال لغته فجعل لغته لغة آدم فى الجنة ولغة البشر بعد الموت ، ولغة السماء ، وهكذا صارت العبرانية سيدة اللغات وارقاها ولغة الوحى ولغة آدم فى كتب الاحبار ، وهكذا صارت

لغة بني آدم عند علماء بني آرم والمتعصبين لها : لغة آدم ، واقدم اللغات على الاطلاق ، وسرت هذه النظرية الى غيرهم من الناس ، ونظرة مثل هذا لا تقبل بالطبع وبأي حال من الأحوال (3) .

وللمستشرقين آراء في اقرب اللغات السامية الى الاصل . فذهب بعضهم الى ان العبرانية هي اكثر تلك اللغات شبها بالسامية الاولى ـ وهي لذلك أقرب بنات سام اليها .

وذهب آخرون الى تقديم لغة الآراميين على غيرها، جاعليها البنت الاولى التي اجتمعت فيها الخصائص السامية الاصيلة اكثر من اجتماعها في اى لغة اخرى ، ولهذا استحقت في رايهم هذا التكريم والتقديم ، وذهب آخرون الى تقديم العربية على سائر اللغات الاخرى لمحافظتها اكثر من بقية اللغات السامية على الخصائص السامية الاولى وعدم تنصلها منها وتركها لها كالذي نراه من استعمالها للمقاطع القصيرة الصامتة ومن كثرة تعدد قواعدها التي زالت بقواعد بقية اللغات .

غير أن هذه الامتيازات والحصانات التي تتمتع بها هذه اللغة يقابلها من جهة اخرى مميزات في العربية لا نجدها في اللهجات السامية الباقية ، مما يبعث على الظن انها طرات عليها فيما بعد وان اللغة العربية قد مرت باطوار .

والتطور هذا معناه ابتعاد هذه اللغة عن الاصل ثم اننا نجد في العبرانية وفي لغة بني آرم قطعا من الكلام اقدم عهدا من اللغة العربية ، غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن ننكر أن معرفتنا واحاطتنا باللغة العربية لا تكاد تدانيها معرفتنا واحاطتنا لبقية اللغات السامية . ومن هنا صارت اللغة العربية بلهجاتها المتعددة حقلا مهما لاجراء التجارب والاختبارات في ميدان مقارنات اللغة السامية ودراساتها . وقد ذهب المستشرق « نولدكه » الى أن من الضروري في دراسة مقارنات اللغات السامية البدء باللغة العربية وذلك بأن ناخذ في تسجيل خصائصها ومميزاتها وقواعدها وكيفية النطق بها وما الى ذلك (4) .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية الى قسمين : لغات سامية شمالية ولغات سامية جنوبية ويقسم العلماء اللغات السامية الشمالية الى مجموعتين: مجموعة شرقية ومجموعة غربية ويقصدون بالمجموعة الشرقية : اللغات السامية المتركزة في العراق ويقصدون بالمجموعة الغربية اللغات السامية المتركزة في بلاد الشام (5) .

واللغات السامية الشرقية او الشمالية الشرقية وتسمى ايضا باللغة الاكدية نسبة الى بلاد اكد في وسط العراق من حدود 2500 ق. م الى القرون الاخيرة ق. م .

ا ـ اللغة البابلية : القديمة والوسيطة والحديثة 2000 ق. م الى القرون الاخيرة ق. م .

ب ـ اللغة الاشورية : القديمة والوسيطة والحديثة 2000 ق. م الى 600 ق. م .

واللغات السامية الغربية او الشمالية الغربية منذ منتصف الالف الثاني ق. م . وهي : السريانية والارامية والبابلية والمندائيه ـ لغة الصابئة ـ والكنعانية والاخلامية والفينيقية والبونية والنبطية والموابية والامورية والاوغاريتية ، ومن لهجات اخرى محلية .

اما المجموعة الجنوبية : فتتالف من اللهجات العربية بأنواعها ومن بعض اللغات الافريقية التي يطلق عليها العلماء اسم اللغة الحبشية او المجموعة الحبشية. ويراد باللهجات العربية عربية القرآن والصفوية والنمودية واللحيانية وهي لهجات عربية شمالية وردت بها نصوص جاهلية .

ثم اللهجات العربية الجنوبية التي عثر على نصوص مدونة بها يرجع تاريخ عدد كبير منها الى ما قبل الميلاد وهي : المعينية والسبئية والقتبانية والأوسانية والحضرمية والحميرية (6) .

ولقد توصل الباحثون وعلماء مقارنة اللغات الى خصائص اللغات السامية التي تميزت بها وهي :

1 ـ اعتماد مجموعة اللغات السامية على الحروف الصامتة Konsonant اكثر من اعتمادها على الاصوات Vokale فنرى ان اغلب كلماتها تتالف من اجتماع ثلاثة احرف صامتة . أما الاصوات فلا نجد لها حروفا تمثلها في اللغات السامية وهي بذلك على عكس اللغات الآرية التي اهتمت بالأصوات فدونتها مع الحروف الصامتة وقد اضطرت اللغات السامية نتيجة لذلك الى الاستزادة من الحروف فزادت في عدادها عن العدد المألوف في اللغات الآرية واوجدت لها حروفا للتفخيم والتضخيم والترقيق وابراز الاسنان والضغط على الحلق .

2 ـ ويتولد فى اللغات السامية من تغيير حركات الاحرف الثلاثة الصامتة وتبديلها معان جديدة ولهذا كان من اهم واجبات الاصوات السامية ، تغيير حركات الحروف لتولد معان جديدة فالاحرف الثلاثة الصامتة اذن هي : التي تكون مفهوم الكلمة وهيكلها ولكن مفاهيم هذه الاصول الثلاثة لا تبقى على حالها ، متى تغيرت حركات هذه الحروف .

3 ـ ومن الممكن احداث معان جديدة فى اللغات السامية وذلك باضافة زوائد تتألف من حرف او اكثر الى الاصول الثلاثة فيتبدل بذلك معنى الاصل .

4 ـ وليس فى اللغات السامية ادغام للكلمات اى وصل كلمة بأخرى لتتكون من كلمتين كلمة واحدة يكون لها معنى مركب ، من معنى الكلمتين المستقلتين كما فى اللغات الآرية ، واما ما نراه من عد كلمتين مضافتين كلمة واحدة تؤدي معنى واحدا فان هذا النوع من التركيب بين الكلمتين شيء جديد فى اللغات السامية لم يكن معروفا عند اجدادهم القدماء .

5 ـ وهذا هو سبب ظهور الاعراب فى اللغة العربية . ويذهب العلماء الى ان الاعراب كان موجودا فى جميع اللغات السامية ، ثم خف حتى زال من اكثر تلك اللغات . ونرى له اثرا يدل عليه فى العبرانية فى حالتي المفعول به وفى ضمير التبعية وفى السريانية البابلية فى ضمير التبعية فان هاتين الحالتين تدلان على وجود الاعراب فى اصولها القديمة .

6 ـ ويرى العلماء ان الفعل قد تطور فى اللغات السامية تطورا خطيرا استغرق قرونا طويلة وان ما نعرفه من تقسيم الافعال الى ماض ومضارع وامر لم يكن معروفا على هذا النحو عند قدماء الساميين (7) .

اذن مما سبق بيانه وضح لنا ان اللغة العربية من اللغات السامية ـ الآرية والكنعانية والكلدانية والسريانية والاشورية والعبرانية وغيرها ـ التي نشأت فيما يسمى الآن منطقة الشرق الأوسط .

وقد ظلت الآراء مضطربة ومختلفة فى الأصل المشترك للغات السامية والعلم على اى حال لم يعرف الكلمة الاخيرة . ودائما يزيدنا العلم معرفة وقربا .

ومما هو جدير بالذكر ان اللغة العربية آخر لغة انفصلت عن اللغة الام « السامية » الامر الذي مكنها ان تاخذ ما فى السامية من مزايا وتتجنب الى حد بعيد كثيرا من مزالق مما لم يحصل للسريانية والعبرية اللتين سبقتا اللغة العربية فى الانفصال .

وقد استفادت اللغة العربية من تطور السريانية والعبرانية وما اعتراهما من تحوير وتجديد فجاءت بدايتها لا كبداية هاتين اللغتين بمعنى ان بداية العربية جاءت اقرب الى النضج والاكتمال من شقيقتها فكانت بحق بداية جديرة بأن تقود الى نتيجة هي اكبر نضجا واستقرارا وسعة .

والمراكز التي تبلورت فيها اللغة العربية هي : اليمن والحجاز ، اما فى اليمن فكانت العربية اكثر اتصالا بالاكدية والحبشية من اي لغة اخرى ، على ان الهجرات الجنوبية الى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر الى حد بعيد فى هذه المناطق ، واما فى الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والعبرانية وهكذا فان هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة .

ومما لا يسوغ انكاره ان هجرات اليمنيين الى الشام وعدم وجود حكومة عربية ورغبة العرب بوجه عام فى الحفاظ على المقومات القبلية لم يكن من شأنه الا ان يوسع دائرة اللغة العربية بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد ، اذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة ودون ان يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها ، واذا كان من الصعب الآن ان نعرف متى نشأت العربية الا انه من المعلوم انه قد مر اكثر من قرن قبل ظهور الاسلام وقبل ان تصل اللغة العربية الى درجة الاتقان .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة وحدها كموطن لسكناهم ومعيشتهم بل هاجر كثير منهم الى البلاد المجاورة لشبه الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرون .

ولما كانت هذه البلاد المجاورة نفسها موطنا لاناس بينهم وبين العرب صلة شديدة القوة كالانباط والاشوريين والكلدانيين فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد وكونوا فى ظل الحكم الروماني والفارسي بعض الممالك التي اشتهر منها مملكة الحيرة فى القرن الخامس قبل الميلاد ومملكة غسان فى القرن السادس قبل الميلاد .

فلم يكن العرب منكمشين على انفسهم بل كانت لهم علاقات وطيدة بمدينة الفرس والروم وهذا ينطبق ايضا على سكان الحجاز وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان وبعبارة ادق مع العراق والشام ، وكان يحتكر التجارة فى الحجاز قريش لان قريشا كانت تقطن مكة وهي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب .

والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد التي لهم بها علاقة تجارية ، ومن ثم كان لا بد ان تدخل الفاظ كثيرة الى اللغة العربية من الفارسية والرومانية وهذه الالفاظ حضارية .

ولغة العرب ظلت ترتبط فى الجاهلية الى حد ما بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي ، ويوضح ذلك الشعر العربي العريق وتجد ذلك ايضا فى المعلقات العشر ولكن الذي يثير انتباه الباحث هو أن كل ما يرتبط بظواهر الطبيعة فى حدود شبه الجزيرة العربية يمثل ثروة لغوية لا تقدر .

واذا كانت قريش زعيمة قبائل العرب طالما كانت تتولى امور الكعبة وتسيطر على تجارة الحجاز فان لهجتها استطاعت فى النهاية ان تصهر كل اللهجات العربية فى بوتقتها لتخلق منها لغة مشتركة (8) . قال جماعة من الباحثين أن قريشا افصح العرب وبلسانها نزل القرآن الكريم وذلك لانها كانت تختار افضل لغات العرب وهذا الرأى منسوب الى قتادة المتوفى 117 هـ.

ولثعلب المتوفى سنة 207 هـ رأى يشبهه قال : كانت العرب تحضر المواسم فى كل عام وتحج البيت فى الجاهلية وقريش تسمع لغات العرب فخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ (9) .

وقال احمد بن فارس المتوفى سنة 395 هـ نقلا عن اسماعيل بن ابى عبيدة ، اجمع علماؤنا بكلام الرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومجالسهم أن قريشا افصح العرب السنة واصفاهم لغة وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من بين جميع العرب واختار منهم نبي الرحمة محمدا فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، يتحاكمون الى قريش فى امورهم وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة لسانها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب (10) .

وجاء فى مقدمة ابن خلدون : كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم فى الصحة والفساد عند اهل الصناعة العربية (11) .

وقد توسع العلماء المتحدثون فى اثر ما كان لعكاظ فى تثقيف قريش وفى تأثر من كان يحضر فيه من الشعراء والادباء بلغة قريش ومن هؤلاء سليمان البستاني والدكتور طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وعدد كبير من المستشرقين فلهجة قريش على راي هذا الفريق من العلماء هي افصح اللغات (12) .

وهناك روايات تصف لهجات اخرى بالفصاحة ، قال ابو عمر بن العلاء : افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم (13) .

ووصفت بالفصاحة هذيل وثقيف وجرهم ونصر قعين وجاء فى اللسان لابن منظور ان بعض العلماء سئل اى العرب افصح فقال : نصر قعين .

ووصفت بالفصاحة قيس وتميم واسد والعجز من هوازن الذين يقال لهم عليا هوازن وهم خمس قبائل منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف (14) .

وقال ابو عبيدة : واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك لقول الرسول « انا افصح العرب بيد انى من قريش واني نشأت فى بني سعد بن بكر وكان مسترضعا فيهم وهم الذين يقول فيهم عمرو بن العلاء : افصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم (15) .

وقد عدت هوازن وتميم واسد من افصح القبائل فى الاسلام ولذلك رحل اليها علماء اللغة للاخذ منها مثل الخليل والكسائي والازهري وامثالهم من العلماء .

جاء فى كتاب المزهر : ان ابا نصر الفارابي فى اول كتابه المسمى « بالالفاظ والحروف » قال : كانت قريش اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق واحسنها مسموعا وابينها ابانة عما فى النفس والذين نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم اخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم واسد فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ من غيرهم من سائر قبائلهم (16) .

قال الدكتور جواد علي عضو المجمع العلمي العراقي: والقائلون بأن العربية الفصحى هي لسان قريش متأثرون بكون الرسول من قريش وبأن القرآن الكريم نزل بين قريش فهو اذن بلغة قريش وبما أورده علماء اللغة من انتقاء قريش لأدق الالفاظ واعذبها وكقصص سوق عكاظ ، اما ان الرسول من قريش ، فهذا امر مفروغ منه واما ان القرآن الكريم بلسان قريش فمسألة فيها نظر وقضية تحتاج الى بحث .

فلو كان القرآن بلسان قريش لم سأل رجال منهم فى تفسير كلمات من كلام الله ؟ ولم لجأ المفسرون الى الاستشهاد بشعر غير قرشي وبلغات قبائل اخرى لتفسير كلمة من كلام الله ؟ ولم ندر الشعر فى قريش ؟ وقد ورد ان قريشا كانت اقل العرب شعرا فى الجاهلية فاضطرها ذلك الى ان تكون اكثر العرب انتحالا للشعر فى الاسلام وورد ايضا ان العرب كانت تقر بالتقدم لقريش فى كل شيء الا فى الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن ابي ربيعة فاقرت له الشعراء بالشعر ايضا ولم تنازعها .

ولم استشهد العلماء فى اللغة بأبيات من الشعر وبكلام الاعراب بدلا من الاستشهاد بلغة قريش ثم من يثبت مقالة من قال ان قريشا كانت تتخير الكلام فتنتقي منه اعذبه واصفاه وليس لديهم دليل جاهلي مكتوب ولا اثر عتيق يمكن الاعتماد عليه ؟ ثم ما قولنا فى حديث طال بحث العلماء فيه وهو « انزل القرآن على سبعة احرف » وقد قيل ان خمسة منها لعجز هوزان واثنين منها لقريش وخزاعة . وهو حديث فى امره نظر .

على كل حال ينسب الى عبد الله بن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله . وذلك ان الذي روى عنه ـ ان خمسة منها من لسان العجز من هوزان ـ الكلبي عن ابي صالح وان الذي روى عنه ـ ان اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة ـ قتادة ، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه «كما فى تفسير الطبري ج 1 ص 23»والعجز من هوزان: سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف .

وقيل : ان القرآن الكريم جاء بلسان قريش ولسان خزاعة لان الدار واحدة وقد اجمل الطبري فى تفسيره ج 1 ص 25 رايه فى لغة القرآن بقوله : « ان القرآن كله عربي وانه نزل بألسن بعض العرب دون السن جميعها وان قراءة المسلمين اليوم ومصافحهم التي بين اظهرهم ببعض الالسن التي نزل بها القرآن دون جميعها .

وذهب ابو عبيدة المتوفى سنة 223 هـ الى ان فى القرآن لهجات : لهجة قريش ولهجة هذيل ولهجة هوزان ولهجة يمن ولبعضها نصيب كبير فيه « كما فى الاتقان للسيوطي » .

وذكر ابو بكر الواسطي : ان فى القرآن خمسين لهجة « الاتقان للسيوطي » .

وذهب ابن عبد البر المتوفى سنة 463 هـ الى ان فى بعض مواضع من القرآن ما يعارض ما نعرفه من لهجة قريش ومن جملتها الهمزة « الاتقان » .

وذكر ابن النقيب أن القرآن الكريم تضمن مفردات من جميع لهجات القبائل وكذلك مفردات من الاغريقية والفارسية والحبشية « الاتقان للسيوطي »

وجاء ايضا ان الخليفة عثمان بن عفان كان يفضل ان يكون المملي من هذيل والكاتب من ثقيف وورد انه قال : اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف .

وجاء ان الخليفة عمر قال : لا يملين فى مصاحفنا الاغلمان قريش وثقيف .

وقال الصحابي : قال ابو عبيدة واحسب افصح هؤلاء بني سعد بن بكر لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا افصح العرب بيد اني من قريش وانى نشأت فى بني سعد بن بكر وكان مسترضعا فيهم وهم الذين قال فيهم ابو عمرو بن العلاء افصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم .

وفي كل هذا دليل على ان الفصاحة والعربية لم تكن خاصة فى قريش والقرآن الكريم لم يكن بعربيتها حسب (17) .

قال الدكتور جواد علي : ان لسيادة لهجة ما من بين لهجات عديدة ، شروطا منها : نبوغ شاعر او شعراء او كاتب او كتاب فى تلك اللهجة ، غاية فى البلاغة والفصاحة والصناعة فتنتشر آثارهم بين الناس .

ويحاكيهم غيرهم فى ذلك ، ويكون ذلك سببا فى انتشار اللهجة وتفوقها كما حدث عند اليونان فى الشعر القصصي الذي بلغ كماله فى الياذة «هوميروس» المنظومة بلغة اليونانيين فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وفى الشعر الغنائي المنظوم بلغة الأيوليين احدى اللهجات اليونانية وذلك لسبق الايوليين غيرهم بهذا الفن ، فلم يقل بعدهم سائر اليونان هذا النوع من القريض الا بهذه اللهجة . وكالذي حدث ايضا فى الشعر الخورسي المنظوم باللهجة الدورية عند عموم اليونان . ومن اسباب تفوق لهجة على اخرى سبقها فى مضمار التاليف او اتخاذها لغة رسمية فى دوائر حكومة قوية لها كيان وسلطان او جعلها لغة دينية او تاليف الكتب الدينية بها كما حدث في الالمانية حيث صارت اللهجة التي ترجم بها « مارتن لوثر » الكتاب المقدس فى القرن السادس عشر ، لغة الادب نظرا لمحاكاة الشعراء والادباء اياه فى استعمالها للتعبير عن آرائهم ، او السيادة السياسية والاقتصادية وأمثال ذلك من عوامل بسطها العلماء المتبحرون فى اللغات ولم يرد فى كل الروايات ان قريشا كانت تمتلك هذه الاسباب ليجوز لنا القول ان لغتها كانت لغة الأدب والشعر فى جزيرة العرب قبل الاسلام (18) .

وانني ارى ان لغة قريش لها من المقومات ما جعلها تصهر فى بوتقتها اللهجات الاخرى وتتفاعل معها تفاعلا ادى فى النهاية الى تفوقها وجمعها شمل لهجات العرب فى لغة عربية اصيلة .

والعرب امة ككل الامم الموجودة الآن يرجع نسبها الاعلى الى نبي الله نوح عليه السلام لانه كما يسميه العلماء آدم الصغير ، وجاء ذلك فى القرآن صريحا فى قوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » (19) .

ويقسم النسابون : العرب قديما الى ثلاث طوائف :

الاولى : عرب بائدة وهم عاد الاولى وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وهؤلاء بادوا ، وانقطعت اخبارهم الا قليلا .

الثانية : عرب عاربة ومنهم سبأ وقحطان وجرهم الثانية .

الثالثة : عرب مستعربة ، وهم أولاد اسماعيل ابن خليل الله ابراهيم عليهما السلام وامهم من جرهم حيث جاور قومها اسماعيل وهو فى مهده ورأوا الماء « زمزم » ينفجر حولها فاقاموا بجوارها وكانوا اول من كونوا بلدا عرف من بعد باسم « مكة » ومن ولد اسماعيل هذا كانت القبائل العدنانية التي منها خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، وكانت مساكنهم مكة وما حولها من الحجاز وتهامة . ومن عدنان هذا حفظت العرب العدنانية انسابها ويقال لبطون هذا الشعب العدنانية النزارية .

وتشعبت عدنان هذه الى قبائل اشهرها قريش ويسمى « فهرا » وهو الجد الحادي عشر للنبي عليه الصلاة والسلام ، واصل معنى الفهر «الحجر الصلب».

وانقسمت قريش الى بطون منها بنو هاشم أسرة النبي ، ومنها بنو مخزوم الذين منهم الوليد بن المغيرة ، ومنها تميم ومن تميم أبو بكر الصديق ، ومنها عدي ، ومن عدي عمر بن الخطاب ، ومنها أمية ، ومنهم أبو سفيان بن حرب والد معاوية ، وكان لبطون قريش الشرف فى الجاهلية والاسلام عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قريش الجؤجؤ والعرب الجناحان، والجؤجؤ لا ينهض الا بجناحين(20)

وكان سبب اعتزاز قريش بنفسها ما هياه الله لها من اسكانها بجوار بيته حتى كانت تسميهم العرب جيران الله وآل الله ، وفى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلوات الله عليه وسلامه :

نحن آل الله فى ذمته
لم نزل فيها على عهد القدم

ان للبيت لربا مانعا
من يرد فيه بالثم يحترم

لم تزل لله فينا حرمة
يدفع الله بها عنا النقم

وكان من تدبير الحكمة الالهية لرفع ذكر هذه الامة : ان الهم احد زعمائها وهو قص بن كلاب من اولاد فهر « قريش » عندما راى ان كثيرا من بطون قريش تفرقت وراى المرعى والماء الكثير حتى وصل بعضهم بلاد البحرين راى عند ذلك بالهام ان يجمعهم حول هذا البيت العتيق الذي كرمه الله واكرم من يجاوره . وكان من نتيجة ذلك انه سبحانه سخر بيوتا منها لعمارة بيته ولسقاية حجاجه وهم بنو هاشم ، ومنها من جعله الله مرجع العرب فى الراى والمشورة ومنهم من امتاز فى الحروب وكانت له الراية فيها . ومنهم من كانت له الرفادة وهي ما كانت تخرجه من

اموالها وتعطي منه من انقطعت به الطريق من الحجاج ، ومنهم من كانت سدانة الكعبة فى بيته اى خدمتهـا وحفظ مفاتيحها ، ومنهم من كان عليه دفع الديـات والمغارم عن المحتاجين كبيت ابى بكر الصديق .

ومنهم من كان مختصا بالسفارة بين قريـش وغيرها اذا وقعت حروب او نزلت نوازل وهم بيت عمر ابن الخطـاب .

ولما جاء الاسلام ، اقر كل ذلك لانه من مكـارم الاخلاق ، ومن اعظم أسباب احترام عرب الجزيرة وما حولها لهم ان الله هيأ لهم سكنا جوار البيت العتيق ، وضمن لهم امنهم وقوتهم ، وجعل من دخلـه كان فى حرام الله وامانه حتى ان الرجل منهم يلقى قاتل ابيه او اخيه او ابنه فلا يمسه بسوء ما دام فى حـرم الله ، اقرأ ذلك فيما حكاه الله سبحانه عن ابيهم ابراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات » الى ان قال : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيـم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (21)

وكان لقريش رحلتان هامتان لجلب ما يحتاجون وتصريف ما يستغنون عنه من انعامهم ومنتجاتهـا : رحلة فى الشتاء الى جنوب الجزيرة ورحلة فى الصيف الى الشام وهم فى كلتا الرحلتين آمنون مطمئنـون لانهم جيران الله ، قال الله سبحانه وتعالى : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (22)

وقال تعالى ممتنا عليهم بذلك « أو لم نمكن لهـم حرما آمنا تجبي اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون » . (23)

وقال تعالى مشيرا الى ان هذه الميزة خصهم بها دون من حولهم من العرب : « أو لم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » . (24)

وكانت قريش تنتهز فرصة اجتمـاع القبائـل العربية الكثيرة فى مكة وذلك فى موسم الحج ويقيمون اسواقا يقصدون بها اغراضا شتى منها التجارة ومنها ان تفخر كل قبيلة بمن نبغ فيها من شاعر او خطيب . حتى كانت القبيلة التي ينبع فيها شاعر وخطيب تقيم الافراح الليالي والشهور لانه رفع ذكرها ، وسجـل تاريخها بين العرب . وكان من نتيجة ذلك ان اللغـة العربية القرشية اتسعت أساليبها وغزرت مفرداتها ، وتنوعت مواردها وتوفرت لها اسباب النمو من المجازات المختلفة التي تساند الحقيقة فى تأدية المراد .

قال علماء الادب : رأت قريش ان تحمل العـرب على توحيد أساليبهم وان تكون لغة قريش هي السائدة ولم تزل تهذب فيها وتسيرها فى الألفاظ على السنة الشعراء والخطباء حتى عرفها من لم يكن قريشا فوصلت قريش بذلك ذروة النفوذ الادبي والسيادة على جمهرة القبائل العربية وصارت لغتها ممتازة بصفاء التركيب وعذوبة اللفظ مما جعل العرب يقبلون على محاكاتهـا حتى انتهى الامر الى ذلك الاصلاح القرشـي بظهـور الاسواق الادبية التي كان لقريش فيها الفضـل الاول فكان العرب يحاكون أساليبها ويتأثرون لعذوبة الفاظها فيما يقولون شعرا ونثرا .

وكان العرب يأتون لهذه الاماكن من كل فج عميق ليؤدوا مناسك الحج ويتجروا بأسواقهـم ، وكـان المعروف من هذه الاسواق عندهم : ثلاثة أسواق : سوق عكاظ وهي موضع قريب من الطائف ، وكانـت تقوم من اول ذي القعدة الى عشرين يوما منه ثم ينتقل العرب منها الى سوق « مجنة » بكسر الميم ، وفتـح الجيم وتشديد النون المفتوحة وهي موضع قرب مكة يمر الظهران ثم منها الى سوق ذي المجاز وهي سوق على بعد نحو خمسة كيلومترات من عرفة ويمكثون بها الى أيام الحج .

يقضون فى هذه الاجتماعات نحو شهرين يتعارفون فيها ويتناشدون الاشعار والخطب وكانت اللغة السائدة فى هذه المجامع هي لغة قريش (25) .

ومن الواضح انه لم يكن المتكلمون بالعربية طائفة واحدة رغم انتسابهم الى العرب ولكنهم كانوا قبائـل متفرقة فى انحاء الجزيرة ، وقد اضطرت هذه القبائل الى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة وغيرها، فاجتمعت فى الاسواق واتصلت عند شـن الغارات والحروب . وهذه الاتصالات أوجدت سبيلا للتصارع بين اللهجات فباد الضعيف وازداد القوي قوة وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية التفوق والتغلب لاسباب ، عديدة :

(1) النفوذ الديني : فقد كان لقريش مكانة دينيـة ممتازة لقيامهم بسدانة البيت الحـرام الـذي يفدون اليه لتقديم قرابينهم ، وتقديس آلهتهـم وشهود منافع لهم فكانوا لذلك موضع تقديـس العرب جميعا .

(2) النفوذ التجاري : وقد كان للقرشيين سلطان اقتصادي كبير ، فقد كان زمام التجارة بأيديهم فيجلبون البضائع من الشام صيفا ومن اليمن شتاء ويوزعونها على القبائل العربية فأصبحوا قبلة الانظار العربية .

(3) النفوذ السياسي : وقد تهيأ لقريش مكانة سامية بفضل ما أوتوا من نفوذ ديني واقتصادي وما حبوا به من حضارة ومجد فأصبح لهم نفوذ عند العرب جميعا ، ويرشدنا الى ذلك ما قاله أبو بكر الصديق في رده على الانصار الذين طمعوا في الخلافة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم » .

(4) النفوذ اللغوي : ان القرشيين لم يقفوا حجر عثرة في سبيل تقدم لغتهم بل عملوا على نموها ، فاضافوا اليها ما هي في مسيس الحاجة اليه وما رواه اخف على اسماعهم وايسر على السنتهم .

فهذه العوامل قد هيأت للقرشية سبيل النجاح ومكنتها من أن تصبح اللغة العربية السائدة ذات الاصالة والعمق . فانت ترى أن قريشا افردت بعلو الكلمة وسمة الزعامة وسعة الجاه ووفرة السلطان وتمام النفوذ الروحي والاقتصادي بين العرب لما تواتي لهم من ثقافة وخبرة وحنكة .

والذي ورث من لغة الحميريين ليس كثير التمييز عن لغة قريش سواء في التصريف ام في الاعراب ام في الاسلوب . بل ان اكثره ظاهر في اختلاف بعض الالفاظ عن بعض في الدلالة على المعاني المتحدة ، فلفظ « انطى » في لهجة الحميريين معناه « اعطى » عند قريش والكتع عند الاولين هو الذنب عند الآخرين ، والشناتر عند حمير ، هي الاصابع عند قريش ، وسامدون في لغة حمير هي الغناء في لهجة قريش الى غير ذلك مما تجد له نظيرا في لهجات مضر كالسدفة فهي الظلمة عند تميم والضوء في لغة قريش (26) .

ولما كان الخلاف بين الحميرية والقرشية غير متشعب ذابت لغة الحميريين كسائر اللغات الاخرى في لغة قريش التي صارت ذات غلبة وسيادة على سائر اللغات ، وقد استفادت القرشية من صراعها مع اللهجات الاخرى امورا كثيرة اهمها :

(1) استفادت كثيرا من المفردات والاساليب ولا سيما التي كانت تنقصها فتنوعت فنون القول وتمكنت من التعبير عن جميع الاغراض ، وقد غنيت بالمترادف والمشترك والمتضاد وغيرها من الامور التي كانت كبيرة الاثر في نمو اللغة وسعتها

(2) صيرورتها اللغة القومية للعرب جميعا ، لان اللغات او اللهجات اذا تصارعت وكتب لاحداها الفوز اتجه الجميع الى التكلم بها ولذلك صارت القرشية لغة الشعراء في اشعارهم والخطباء في خطبهم ، ويؤكد ذلك ان العرب على اختلاف قبائلهم ورد الينا شعرهم بلغة موحدة الا في القليل النادر وهو الذي كان عليه الاعتماد في تعرف البقية من لهجاتهم (27) .

وانت ترى بعد هذا ، ان احتكاك اللهجات العربية ادى في نهاية الامر الى تزعم القرشية وصرعها جميع اللهجات الا انه قد بقي لكل قبيل بعض الالفاظ التي كانوا يستعملونها في مخاطباتهم وفي النادر من اشعارهم ، والذي يرشدنا الى هذه البقية من اللهجات مصدران :

المصدر الاول : القراءات التي رويت في القرآن الكريم عن ائمة القراء الموثوق بهم والذين نقلت الينا قراءاتهم من طرق لا يتسرب الشك اليها ، وقد روى عن ابي بن كعب رضي الله عنه قال : دخلت المسجد اصلي فدخل رجل فافتتح النحل فقرأ فخالفني في القراءة ، فلما انفتل من صلاته قلت : من اقراك ؟ قال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم جاء رجل فقام يصلي فقرأ فخالفني وخالف صاحبي ، فلما انفتل، قلت من اقراك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كان في الجاهلية ، فأخذت بأيديهما وانطلقت بهما الى النبي فقلت : استقرىء هذين فاستقرأ احدهما : وقال احسنت ، فدخل قلبي من الشك والتكذيب اشد مما كنت عليه في الجاهلية . ثم استقرأ الآخر وقال احسنت فدخل صدري من الشك والتكذيب اشد مما كنت عليه في الجاهلية .

فضرب رسول الله صدري بيده وقال اعيذك بالله يا ابي من الشك ثم قال : ان جبريل عليه السلام اتاني فقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على حرف واحد فقلت اللهم خفف عن امتي . فقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على حرفين فقلت : اللهم خفف عن امتي ، ثم عاد وقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على سبعة أحرف .

فهذا الحديث صحيح فى اجازة النبي القراءات التي هي مصدر لاختلاف اللهجات .

والمصدر الثاني : ما رواه الثقاة فى كتب النحو والادب واللغة والتاريخ من آثار لتلك اللهجات ومما يذكر استطرادا : أن الخلاف بين اللهجات متعدد النواحي متشعب الجهات ، فتارة يكون الخلاف ناشئا عن اختلاف الحروف وتارة أخرى يكون عن تباين الحركات . وثالثة من اختلاف حركات الاعراب والبناء وآونة يتعلق بهيئة النطق .

وبالنظر الى ما وصلنا من لهجات العرب يمكننا ان نحصر مظاهر اختلافها فيما يلي :

1) الابدال : ويشمل ابدال الحروف من الحروف والحركات من الحركات .

2) التصحيح والاعلال .

3) الاختلاف فى الاعراب .

4) التردد بين الاعراب والبناء .

5) الزيادة والنقصان .

6) الفك والادغام .

7) هيئة النطق : وهي تشمل : الامالة والترقيق والتفخيم والاخفاء والاظهار .

8) تقديم بعض حروف الكلمة على بعض وهو : القلب المكاني .

9) دلالة اللفظ على معنيين فاكثر وهو المشترك والمتضاد .

10) دلالةعدةالفاظعلىمعنىواحد وهو المترادف (28)

واما المستشرقون فآراؤهم فى اللغة الفصحى مختلفة كذلك . يرى « نولدكه » ان الفروق بين اللهجات فى الاقسام الرئيسية من جزيرة العرب ـ مثل الحجاز ونجد ومناطق البادية المتاخمة للفرات ـ لم تكن كبيرة ، وان اللهجة الفصحى مبنية على جميع هذه اللهجات .

ويرى غويدي : أن اللغة الفصحى هي مزيج من لهجات تكلم بها اهل نجد والمناطق المجاورة لها ولكنها ليست لهجة معينة لقبيلة معينة .

أما المستشرق « نلينو » فيرى أن اللغة الفصحى وهي لغة انشعر الجاهلي هي لغة القبائل التي اشتهرت بالبراعة فى نظم القصيد والتي تردد اليها النحاة وعلماء اللغة فى الاسلام ليتعلموا من اهلها صحة النطق بالحروف أو المعاني الغريبة والشواهد لقواعد النحو وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلمتها قبل منتصف القرن الخامس للميلاد ؛ ويرى ان هذه اللهجة تولدت من احدى اللهجات النجدية وتهذيب فى مملكة « كندة » وفى ايامها فصارت اللغة الادبية السائدة بين العرب .

ويرى فيشر Fischer ان العربية الفصحى هي لهجة معينة ولكن فيشر لم يعين هذه اللهجة . اما رأي هارتمن Hartmann وفولرس Vollers فخلاصته : ان العربية الفصحى هي لهجة اعراب نجد واليمامة ، غير ان الشعراء ادخلوا عليها تغييرات عديدة ، أما الاجزاء الباقية من الجزيرة فكانت تتكلم بلهجات أخرى .

ومن راي بروكلمن Brockelman وويتزشتاين Wetzstein وآخرين : ان اللهجة العربية الفصحى لم يتكلم بها على الشكل الذي نعرفه ولم يشرح « بروكلمن » علاقة هذه اللهجة ببقية اللهجات .

ويرى « لندبرج » Landburg أن قواعد هذه اللهجة انما هي من وضع الشعراء فمن شعرهم استخرجت القواعد ومن قصائدهم استنبطت (29) .

هذا مجمل آراء كوكبة من كواكب العلم والاستشراق والدراسات الواسعة فى المقارنة والعمق والأصالة الجاهدة . ومع انها آراء تبدو مختلفة الا انها فى جملتها ومضمونها العام تعطي صورة صادقة لفصاحة القبائل العربية المنتشرة فى طول الجزيرة العربية وعرضها .

ومما يرجى ذكره : ان العلماء لم يتفقوا على اول ناطق « لاهج » بالعربية ، فافترق الباحثون حسب ما بدا لهم من أدلة أساسها الحدس والتخمين .

فيرى فريق من باحثي اللغات : ان العربية نشأت على يد القبائل البائدة التي لم يشملها الفناء والهلاك كطسم وجديس ويستند اصحاب هذه الفكرة الى التوافق بين النقوش المعثور عليها والاصوات التي امتازت بها السامية كالضاد والغين .

ويتجه آخرون : الى أن يعرب بن قحطان هو اول متكلم بالعربية ويؤيدهم كثيرون من العلماء محتجين

بأن العرب البائدة قد ذهبت أدراج الرياح فليس لها أثر محقق سوى المروي من قصصها فى الكتب السماوية والمنقوش على الآثار المعثور عليها . وهـذا الـرأي منسوب إلى اليمانيين الذين يرون أنهم اصل العرب .

ويتجه جماعة : الى ان اسماعيل هو اول متكلم بالعربية مستدلين بما ورد فى الاثر من ان أول من فتق لسانه بالعربية اسماعيل .

وجاء فى المزهر : ان اول من تكلم بالعربيـة ونسي لسان ابيه اسماعيل عليه السلام(30) . ويرى بعض العلماء : ان العربية هي لغة العرب العاربة ومنها انتقلت الى القحطانيين فالعدنانيين ، وقال فريق : ان لسان جميع من كان فى سفينة « نوح » هو السريانيـة الا واحدا منهم هو « جرهم » فكان لسانه لسان العـرب الاول . فلما خرجوا من السفينة تزوج ارم بن سـام بعض بناته فمنهم صار اللسان العربي فى ولده عوض ابى عاد وعبيل وجاثر ابى ثمود وجديس .

تلك آراء العلماء وقد عززت بالادلة التي وضحت لاصحابهـا .

ومن النظر البين فيها تتجـه النفـس الى ان العربية اخذت من بقايا القبائل البائدة فليس هلاكهـا مؤثرا فى لغتها فهناك قبائل بقيت كطسم وجديس .

ولانه من غير المقبول ان يكون « يعـرب » اول لاهج بها . لانه وفد من العراق متكلما بلغته التي تفاهم بها فى وطنه الذي ارتحل عنه وهي غير عربية قطعا ، فترك يعرب للغته التي تعودها منذ نعومة اظفاره ليتكلم بلسان جديد هو العربية مناف للمألـوف ومخالـف للمعـروف .

كذلك لا يمكن القول بأن اسماعيل العبري أول لاهج بها . بناء على اثر نبوي فالطعن فى هذا الحديـث بناء على حال اسماعيل قوي ولكننا نقبله ونفسره بما يساير الواقع ويتفق مع الحاصل وهو ان اسماعيل أول ناطق بالعربية من العدنانيين بعد أن تعلمها من مخالطة الجراهمة التي هي فرع قحطاني عند نزوله مع امـه ببطن مكة سنة الف وسبعمائة قبل الميـلاد . وعلى ذلك فلا تنافي بين الاثر والواقع .

والقحطانيون وقد تلقوا لغتهم من بقايـا العرب البائدة لم يكن لهم لسان موحد فى شتى العصـور لان العوامل اللغوية فعلت فعلها فكانت اللهجات المختلفة .

اللهجة المعينيـة : وهي منسوبـة الى المعينييـن الذين اسسوا اقدم مملكة فى بـلاد اليمن وقد اتخذوا « قرنا » عاصمـة لهم وذلك فى القرن الثامـن قبـل الميلاد غالبا .

اللهجة السبئيـة : وتنسب الى السبئيين الذيـن قامت دولتهم القويـة على انقـاض الدولة المعينة واتخذوا « مـأرب » عاصمة لهم .

اللهجة الحميرية : وهي منسوبة الى الحميريين الذين نازعوا السبئيين الحكم امدا طويلا .

اللهجة القتبانية : وتنسب الى قبائل قتبان التـي انشأت مملكتها فى المنطقة الساحلية شمال عدن .

اللهجة الحضرمية : وهي منسوبة الى قبائل حضرموت وقد انشأت مملكة قوية نازعت سبا السلطـان .

فالقحطانيون تلقوا هذه اللغة عن بقايا القبائـل العربية البائدة وقد توسعوا فيها حسب مطالب الحياة واخذها العدنانيون عنهم لجوارهم لفرع قحطاني وهو « جـرهـم » (31) .

فالعربية عريقة فى القدم ـ ممتدة فى جـذور التاريخ العميق . ولها تاريخ ممتد فى الزمن الماضـي وان التاريخ الطويل للغة يعطيها فاعلية اكثر وتبلـورا وتناسقا مع مقتضيات كل زمان .

وللعربية مصادر اصيلة وركائز اساسية اعتمدت عليها فى تفاعلها مع الزمن وهذه المصادر يمكـن ان نستقيها من: القرآن الكريم والشعر والامثال والقصص.

اما القرآن : ففضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا فى التفكير العربي فى جميع مناحي الحياة ، فقد كان مصدرا عظيما للغة التي اغناها بمصطلحات كثيـرة أو باسلوب جديد ، وكثير من هذه المصطلحات أو الاساليب يرتبط ارتباطا وثيقا بالديـن والعقائـد والعبـادات والمعامـلات .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقـدم هـذا الاسلوب المنزل فى صورة وحي كأخبار او جواب عن اسئلة يثيرها العرب « يسألونك عن الأهلة ـ يسألونك عن الشهر الحرام ـ ويسألونك ماذا ينفقون ـ يتساءلون عن النبأ العظيم » الخ .

وفى عهد الرسول لم تثر أسئلة كثيرة لتأويل عدد من نصوص القرآن فكان على الصحاب ان يأخذوا على أنفسهم ثقل هذه المسئولية فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة وابن عباس الذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة التي أثارها المستفسرون.

واثار الخلاف فى قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة روايات تنوقلت عن جماعة معينة من القراء واحتفت الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف يتعلق بالحركات لا بجوهر اللفظ نفسه . ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا اساسيا لرواة اللغة الذين اعتمدوه كنقطة استقرار واستنتاج وقد حفظ عدد من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية فى الأسلوب العربي مثل : « ان هذان لساحران ، قال رب ارجعون » « والأرض فرشناها ـ فقد صفت قلوبكما » وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد بها للتدليل على صحة ما يقابلها من غير القرآن . قال المستشرق بروكلمان Brockelmann بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه اى لغة اخرى من لغات الدنيا ، والمسلمون جميعا مؤمنون بان العربية هي وحدها اللسان الذي احل لهم ان يستعملوه فى صلاتهم . وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع اللغات الاخرى التي تنطق بها شعوب اسلامية .

وقال الدكتور ستينجاس : ولنسائل انفسنا ماذا كان مصير هذه اللغة العربية ولو لم يكن محمد ولو لم يكن القرآن ؟ ونحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت قبل الاسلام الوانا عديدة من الشعر هي غاية فى الحسن والرقة الا انها كانت كلها محفوظة فى اذهان الناس وغير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعر العربي ليس هو الادب كله .

وقال الدكتور « جورج سارطون George Sarton وهب الله اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على ان تدون الوحي الالهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفتاته ، وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة . وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الاعلى فى التعبير عن المقاصد . الا ان هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعددة للتخاطب العادي وخصوصا حينما أصبح أبناء الامم المختلفة يتكلمون العربية ولكن القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن اسمى مقتضيات الحياة (32) .

والحديث الشريف لم يخط بمثل هذه الخطوة ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا او ضمنا فى أحاديث النبي حتى قيل انها لم تسمع عن غيره من قبل ومنها: «مات حتف انفه ـ الحرب خدعة ـ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

واما الشعر: فمصدر بالغ الاهمية للغة حتى قيل: انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وانما ظل الشعر مصدرا للغة لسهولة حفظه وروايته ولأنه لا يحتمل المكذوب والمدسوس مثلما يحتمله النثر ، واذا كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الادباء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة فى وقت متأخر نسبيا كأبي تمام فى كتاب « الحماسة » وابو فرج الاصبهاني فى كتاب « الأغاني » والذين قصدوا جمع مواد اللغة للتأليف، فى هذا الباب عمدوا الى الاستشهاد بالشعر كما فعل النحاة أيضا . وهكذا استشهدوا بالشطر التالي على أن « عزب » تطلق على الذكر والانثى

يا من يدل عزبا على عزب

كما استشهدوا فى مخاطبة الواحد بلفظ التثنية بقول سويد بن كراع :

فان تزجراني يابن عفان انزجر
وان تدعاني احم عرضا ممنعا

وقس على هذه الامثلة وقد كان ابن عباس يقول: اذا قرأتم شيئا من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب لأن الشعر ديوان العرب (33) .

قال أبو حاتم الرازي المتوفى فى سنة 322 هـ ان للغة العربية ديوانا ليس لسائر لغات الامم وهو الشعر الذي قد قيدوا به المعاني الغريبة والألفاظ الشاردة فاذا احوجوا الى معرفة حرف مستصعب ولفظ نادر التمسوه فى الشعر الذي هو ديوان لهم متفق عليه مرضي بحكمه مجمع على صحة معانيه واحكام أصوله محتج به على ما اختلف فيه من معاني الالفاظ واصول اللغة .

والشعر : هو الكلام الموزون على روي واحد ، المقوم على حدو واحد حتى لا يخالف بعضه بعضا فى الوزن والروي وسموه شعرا : لانه الفطنة بالغوامض من الاسباب وسموا الشاعر شاعرا لانه كان يفطن لما لا يفطن له غيره من معاني الكلام وأوزانه وتاليف المعاني واحكامه وتثقيفه ، فكان لا يفوته من هذه الاسباب كلها شيء . قال عنترة :

هل غادر الشعراء من متـــردم
أم هل عرفت الدار بعد توهـــم

بمعنى ان الشعراء لم يدعوا شيئا الا وفطنوا لـه يقال شعرت بالشيء اذا فطنت له ، قال الكسائي في قوله تعالى « ولكن لا تشعرون » شعرت بالشيء شعرا وشعورا وبعضهم يقول مشعورة ، وقال ابو سعيدة : هو شعره فحذفوا الهاء قال : وهو مثل الدربة والفطنة وهو على وزن « فعلة » قال : وقيل شاعر لانه يشعر بالشيء ويفطن له ، قال : ومنه قولهم ليت شعري اي ليتني أشعر به .

وسموا الكلمات المنظومة المؤلف بعضهـــا الى بعض « قافية وجمعها » « قواف » قال النابغة :

قواف كالســـلام اذا استمـــرت
فليس يرد مذهبهـا التظنـــــي

يعنون بالقوافي الكلام الذي يقفو بعضه بعضا على مثال واحد ثم سموا اجتماع القوافي قصيدة .
قال جـريـــر :

في ليلتين اذا حدوت قصيـــده
بلغت عمان وطـيء الاجيـــــال

يعني بالقصيدة : الكلمة التي ملئت بالمعانـــي وكثرت فيها الالفاظ المستحسنة يقال ناقة قصيدة اى ممتلئة كثيرة اللحم سمينة فكانهم شبهوا القصيـــدة بذلك ، قال الشاعر :

قطعت وصاحبي ســـرح كنـــاز
كركن الرعن ذعلبة قصيـــد (34)

فالعرب تكلموا بالشعر الرصين المحكم المعاني الموزون بالعروض المقوم بالانحاء من غير ان يعرفـوا عروضا او نحوا وابرزوه في الفاظ حسنة ومعان متقنة وقواف موزونة ومصاريع مستوية فرواه اهل اللـب والادب منهم وقبل اهل الشرف والحسـب عنهـم وجعلوا رويه في ذكر الاحساب والمآثر ومدح الملوك والاكابر والنبلاء من الناس ، وفي ذكر المثالب والسباب وهجاء اهل الضغائن والاحقاد ،وفي ذكـر الوقائـع والحروب ونشر كل شاعر محاسن ايـام قبيلتـه ومفاخرها ومساوىء اهل الشنآن والبغضاء واستفتحوا كلامهم بذكر النسيب وبسطوه بصفات الديار والقفار والنجع والامطار ، ونعت الخيل والابل والوحش وغير ذلك مما يطول الشرح به ، ويكثر الكلام بذكر عللـه فتقيدت به الالفاظ الغريبة والمعاني اللطيفـة وحفظ الرواة عنهم كثيرا من ذلك الشعر ودونوه ورواه السلف للخلف وعرفوا به اختلاف لغات القبائل (35) .

واما الأمثال : فتعد ايضا من المصادر الأصيلة للغة العربية حيث انها ذات اهمية بالغـة من حيـث ارتباطها اجتماعيا وادبيا بحياة العرب . وهي من آداب العرب الهامة ، لانها تجري على السنتهم مجرى الشعر وهي عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقـل الراجـح .

قال ابو عبيد : الامثال من حكمـة العـرب في الجاهلية والاسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال ايجـاز اللفظ واصابـة المعنى وحسن التشبيه (36) .

والعرب تضمن اشعارها واقوالها الامثال والحكم فتزينها كقول ابى ذؤيب من قصيدة :

فلا تك كالثور الذي بـه دفنـــت
حديدة حتف ثم امسى يثيرها (37)

وبعضهم نظم القصائد كلها من الامثال كارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذات الأمثال (38)ولا تخلو امة من الامثال المتوارثة في الاعقاب . لكن العرب يمتازون بامثالهم المبنية على الحوادث لان الامثـال عندهـم نـوعـان :

1 ـ امثال حكمية كقولهم : الجار قبل الدار، والحرب خدعة ، والخطأ زاد العجول ، والعتاب قبـل العقاب ، ونحوها مما يتناقله النـاس في الأعقـاب وترويها الامم بعضها عن بعض ، وأقدم مجموع لهـا أمثال سليمان واكثر الامم اخذت عنها .

2 ـ الامثال المبنية على الحوادث وهي خاصة بهم لان الحوادث جرت لهم كقولهم : « وافـق شـن طبقة » و « قطعت جهيـزة قول كل خطيـب » و « الصيف ضيعت اللبن » و سبق السيف العذل » وهم يؤثرون تلك الامثال عن قائليها وقد يروون عشرات من الامثال قالها الواحد في حادثة واحدة كمـا رووا في حادثة الزباء وقصير وجذيمة الأبرش(39) فذكروا في اثناء هذه الحادثة عشرات من الاقوال ذهبت مثلا منها قول قصير « راى فاتر وعدو حاضر » وقوله « رايك في الكن لا في الضح » وما ضل من تجري به العصا » وقول الزباء « لامر ما جدع قصير انفه » « وبيدي لا بيد عمرو » ونحو ذلك ، وهذه الامثال واشباهها كثيرة في اقوال الجاهلية .

وقد عني العرب بجمع الأمثال لأنها من جملة ما احتاجوا اليه فى تحقيق الفاظ اللغة ، ذكر ابن النديم أن عبيد بن شرية من أهل اليمن ألف كتابا فى الأمثال فى خمسين ورقة بأواخر القرن الاول الهجري وهو اول من فعل ذلك وقد ضاع هذا الكتاب .

واشتغل كثيرون من ادباء البصرة والكوفة فى ابان التمدن الاسلامي بجمع امثال العرب منهم صحار العبدي كان معاصرا لابن شرية ويونس النحوي المتوفى سنة 182 هـ وابو عبيدة سنة 211 هـ وثعلب سنة 291 هـ وابو عبيد القاسم بن سلام سنة 223 هـ والمفضل الضبي وابو هلال العسكري ومحمد بن زياد الاعرابي ومحمد بن حبيب البغدادي وحمزة الاصفهاني وغيرهم .

وقد شرح هذه الكتب كثيرون واضافوا اليها من الامثال الحادثة فى الاسلام ، واهم هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب « المستقصى » للزمخشري « توفى سنة 538 هـ » ومجمع الامثال للميداني « توفى سنة 518 هـ » وفى مجمع الامثال نخبة مما احتوته كتب المتقدمين جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتابا فى الأمثال ورتبه على حروف المعجم بعد أن أضاف اليه امثال المولدين . وهو اجمع كتاب فى الامثال العربية وفيه شروح لطيفة وقد طبع مرارا فى مصر وغيرها ، اما المستقصى للزمخشري فمنه نسخ خطية فى مكتبة ليدن وفينا والمتحف البريطاني وكوبرلى بالأستانة ودار الكتب المصرية .

اما كتب الامثال الاصلية التي أخذ عنها الميداني والزمخشري فالباقي منها قليل : اهمها كتاب الامثال لابي عبيد القاسم بن سلام طبع فى غوتنجن سنة 1836 وامثال العرب للضبي طبع فى الاستانة سنة 1300 هـ وجمهرة الأمثال لابي هلال العسكري طبعت فى الهند سنة 1307 هـ وامثال لقمان طبعت مرارا فى اوربا ومصر ومنها طبعة فى باريس سنة 1847 مع ترجمة فرنسية ، وتجد كثيرا من أمثال العرب فى كتاب الأمالي لابى علي القالي ، وكتب اللغة وكتب الادب ونحوها (40) .

واما القصص : فوراء كل مثل قصة حفظت كتب الامثال السابق ذكرها كثيرا منها وخصوصا مجمع الأمثال للميداني 518 هـ والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب اللفظ وجمال الاسلوب واحسن مرجع لها هو كتاب « الامالي لابى علي القالي وكتاب الأغاني لأبي فرج الاصفهاني وكتاب البيان والتبيين للجاحظ » .

وخلاصة القول : ان القرآن الكريم والشعر والأمثال والقصص قد أدت دورا بارزا فى حفظ اللغة العربية وتقويمها . الا ان جميع الدراسات اللغوية اثبتت فى قوة ان سبب نشأة اللغة العربية ونموها واتساعها وشمولها وتبلورها ، هو القرآن الكريم قبل غيره وذلك ان الفاظا كثيرة يرددها القرآن كانت مثار اسئلة المسلمين منذ عهد الرسول ، وكان بين هذه الالفاظ ما هو غير عربي ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه قبل الاقدام على التاويل الشرعي فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن الكريم .

واختلفت الروايات فى قراءة القرآن . فنشأ عن ذلك علم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو . واخيرا فان وضع قواعد النحو كان ضروريا لحفظ آيات القرآن على صورتها الأصلية بقطع النظر عن تعدد القراءات ولحسن الحظ ، فقد كان العرب يفطنون الى ضرورة تدوين اكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون ضياعها بسرعة كما فعلوا فى تدوين المصحف مثلا فقد بدأوا فى ذلك منذ عهد ابى بكر الصديق . وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة والقراءة . بل يمكن ان يفهم من تعليم أسرى مكة لصبيان المدينة اثر وقعة بدر الكبرى أن الكتابة والقراءة كانتا تنتشران بمكة التي عرفتها قبل المدينة ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرآن قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة فى باقي اجزاء شبه الجزيرة العربية فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة ، ولقد كانت لغة الشعراء كما يقول « بروكلمان » اشبه ما تكون بنهر جداوله هي اللهجات للقبائل التي اشتقت من العين نفسها .

واذا كان للقرآن الكريم فضل فى انتشار العربية بشكل لم تكد تعرفه لغة اخرى فى العالم فان الموارد الاخرى التي استقى منها الرواة ودارسو اللغة الأولون قد أدت بدورها خدمة للعربية لا تنكر .

وقد ظلت اللغة العربية على متانتها وقوتهـــا فى عهد الرسول وفى ايام الخلفاء الراشدين وما سجـــل من الهفوات واللحن على بعض العرب آنذاك لم يكـــن شيئا يذكر بالقياس الى ما أبلغته العربية من فوضـــى شيئا يذكر بالقياس الى ما بلغته العربية من فوضـــى

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال فى تحقيق اللغة وتمييز صحيحها من فاسدها وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذيوع والانتشار (41) .